البث الفضائي الوافد والتحديات التي تواجه المجتمع العراقي

م.م. عذراء إسماعيل/كلية الآداب ـ جامعة تكريت

م.م. يوسف حسن/كلية الآداب ـ جامعة تكريت

مقدمة

إن التحديات التي يواجهها العالم اليوم والتغير السريع الذي طرأ على جميع نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية جعل الاتصال عموما" والاتصال الجماهيري خصوصا" موضوعاً مهماً في حياتنا الاجتماعية، فالاتصال ومنذ قيام الحضارات والتجمعات بات ولا يزال عصب انتماء الفرد للمجتمع ٠

وبتطور المجتمعات صار الاتصال المنظومة الرئيسة التي تغذي شرايين التجمعات البشرية سواء أكان ذلك على مستوى الأسرة أم التنظيمات أم المؤسسات الكبرى في المجتمع، وقد ساعد على تزايد معرفة الإنسان وتقدمه الصناعي والتكنولوجي بروز وسائل اتصال حديثة قلّصت المسافات بين مشارق الأرض ومغاربها (بضغطة زر)، فظهرت فضائيات محلية وعربية وأجنبية تنقل برامج تخدم أغراضها، وتتحدى كل القيم والعادات والأعراف المتوازنة للمجتمع العربي عامة،والعراقي الذي تعرض للبث الوافد بعد الاحتلال بشكل خاص.

مشكلة البحث

عند الإحساس بمشكلة معينة تتولد فكرة بحث علمي معين، فبدون وجود مشكلة يفقد العمل العلمي أهميته الأساسية. ووضع علماء المنهج خطوات مهمة لتحديد المشكلة التي تستدعي بحثا علميا رصينا تتمثل فيما يأتي:

١- الإحساس بالمشكلة العلمية. ٢- تحليل المشكلة العلمي. ٣- تقويم المشكلة العلمية [١]

إن التحديات الثقافية التي تنقل للمجتمع العراقي والعربي بصورة عامة عن طريق وسائل الاتصال الجماهيري بكل أنواعها وفي مقدمتها التلفاز عند ربطه بجهاز (الستلايت) يجعلنا نتنقل بين القنوات الفضائية من مشارق الأرض إلى مغاربها إذ أزيلت الحواجز بهذه الوسيلة، وصرنا نطلع على كل ما يُبث إلينا من عادات وتقاليد تتعدى الحدود والعادات والأعراف التي كسبناها عبر تاريخ الأجداد، وهي في مجملها تخدم رغبات الغرب وأهدافه وربما يكون بعضها موجها لتمزيق الوحدة الأسرية وإشغال فكر الشباب العربي وتشويه تقاليدهم وجرهم للانتفاض على واقعهم وتقاليدهم المتوارثة. ومن خلال المعايشة الميدانية لاحظنا هذا الأمر واضحا بعد عرض أفلام ومسلسلات تركية مدبلجة إلى العربية، ولاحظنا شبابنا وشاباتنا يقلدونهم حرفيا" بكل شي؛ بعبارات الكلام،وبالملابس، وبالسيارات، وبالصداقات. وهذه مشكلة بحد ذاتها تواجه مجتمعنا وتحديات من شأنها طمس الهوية العربية والعراقية ٠

أهمية البحث والحاجة إليه

ازدادت أهمية الاتصال في استمرار الحياة وتطورها وازدهارها على سطح الأرض منذ زمن بعيد، فبدونه يستحيل التفاهم وينعدم الفعل المشترك، حيث الحضارة الإنسانية واستمرارها عن طريق النقل والاتصال ٠ وتنبع أهمية هذا البحث من الدور الذي تضطلع به القنوات الفضائية في التأثير في اتجاهات الجمهور العراقي ٠ وفي كونه يتناول موضوعا" مهما" وحساسا هو البث الفضائي الوافد إلينا عبر القنوات الفضائية وما ينقل للجمهور ومدى تأثيرها في أفراد المجتمع وبخاصة" عبر فضائيات متخصصة بنقل برامج تجذب آلاف الجماهير لها وأكثر الفضائيات مسيسة لصالح جهة معينة غايتها تغيير المثل والقيم والمعايير وأنماط السلوك العربي وطمس الهوية العراقية، وهذا مما تابعه الباحثان في الملاحظة اليومية والتنقل المستمر في مشاهدة محطات فضائية تجاوز عددها الثلاثين محطة فضائية بقصد الوقوف على أثرها في حياتنا اليومية بعد احتلال للعراق سنة ٢٠٠٣م.

وفي هذا البحث سوف نتعرض لبعض ملامح التحدي الذي يواجه ثقافتنا العراقية بمكوناتها الراسخة ولنتعرف على مدى تأثرنا بما قدم إلينا من مكونات ثقافية عبر العديد من وسائل الاتصال وأهمها حاليا" التلفاز .

التلفاز والثقافة

إن واحدة من ابرز سمات عصرنا تكمن في أهمية تحول وسائل الاتصال الجماهيري بما فيها التلفاز إلى أدوات ثقافية ، بحيث صارت وسيلة مهمة للحصول على الثقافة والاطلاع على شكل الإبداع والتقدم في العالم .فهي لم تعد تقتصر على توصيل مفردات الثقافة ونشرها، بل صارت تؤثر في عملية انتقاء محتواها، الذي يستطيع التلفاز نقله عبر لغته التعبيرية المؤثرة ، إذ أنه يجسد برامجه فنيا" بطرق معالجة متقدمة وبنوعية متطورة جدا" يخاطب مخيلتنا وعواطفنا بطريقة تكون الأقرب لمخاطبة شخص آخر، فهو أقرب لفضل الواقع ويحدد علاقتنا به ويجعلنا نتفاعل معه ، لذلك يحمل لنا التلفاز يوميا" ثقافة صورية يتمكن عن طريقها القائمون على عملية الاتصال من تحقيق بعض الأهداف والوظائف التي تعمل على تدعيم أو تغيير اتجاهات الجمهور وسلوكه وعاداته ، إذ صار هذا الجمهور اليوم يقضي معظم أوقاته لمتابعة المواد البرامجية التي هي في حقيقتها ليست مجرد برامج عادية بل محتوى وبنية داخلية ومضمون معرفي قوامه ثقافة وأيدلوجيا ورموز اجتماعية وأساطير تسهم بشكل أو بآخر بعمليات تغيير في المجتمع الذي يستقبلها ويتفاعل معها. فهذه البرامج بما تحمله من صور تلفازية في واقعها لا تحتاج إلى ترجمة ويسهل إيصالها للمتلقي وتنقل الوقائع مسهمة بفاعلية بتشكيل وعي هذا المتلقي والتأثير أحيانا" بشكل كبير في مفاهيمه، فصارت أكثر تأثيرا" من مكونات الوعي الأخرى.

ما هي الثقافة

الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وسائر القدرات الأخرى ،التي يكتسبها الإنسان لأنه عضو في المجتمع ، بل ويتسع مفهومها ليشمل كذلك

أنماط الفكر والإحساس والقيم السائدة في مجتمع معين ، فلكل مجتمع من المجتمعات البشرية على وفق هذا التعريف ثقافة خاصة به تميزه عن غيره من المجتمعات وتصير مع مرور الوقت سمة خاصة به يمكن أن نتعرف عليه عن طريقها، أي يمكن أن يكون نمط الثقافة دالا" على كل فرد من أفراد هذا المجتمع. وفي مجال الإعلام وفنون البث تهمنا الثقافة الجماهيرية التي تقوم وسائل الإعلام بترويجها ونقلها والتعريف بها للجمهور باختلاف أعمارهم وأجناسهم وأماكن وجودهم. فقد شهد العالم في العقود الأخيرة من القرن العشرين تحولات عميقة شكلت بحد ذاتها ثورة ثقافية وإعلامية أحدثت تغيرات مهمة في مجالات الحياة المعاصرة؛ سياسية واجتماعية واتصالية شكلت بأجمعها معطيات حياتية انعكست على حركة المجتمع المادية والروحية والفكرية والمثل والقيم والمعايير وأنماط الحياة وأساليب السلوك التي تمثل ثقافة هذا المجتمع ، فصار هناك ـ بشكل سريع وهائل ـ نقل لأشكال ونماذج متعددة من الثقافات من مجتمع لآخر ، مما أدى إلى تزاوج الثقافات كما اصطلح عليه والذي نقل ايجابيات وسلبيات الثقافات من واقع أفراد إلى آخرين ومجتمعات أخرى [٣] وما أن شهد الغرب تطورات هائلة في مجال ما يعرف بالثورة الثقافية الرابعة أي ثورة التقنيات ووسائل الاتصال الجماهيرية حتى طرحت مشكلة ثقافة الجمهور او ما يعرف بالثقافة الجماهيرية مما يجعل وسائل الاتصال الجماهيرية والثقافة الجماهيرية التي تشكلها وتغذيها هذه الوسائل ظاهرتين مميزتين للقرن العشرين والوقت الراهن بعد التغيرات التي أحدثتها الثورة الصناعية كما قلنا في مجال الثقافة ووسائل نقلها حتى صارت واحدة من ابرز سمات عصرنا الحالي هي تحول وسائل الاتصال الجماهيرية إلى أدوات ثقافية ، فصارت الوسيلة المهمة للحصول على الثقافة والاطلاع على جميع أشكال الإبداع وتوفر الزاد الثقافي وتشكل الخبرة الثقافية للملاين من البشر يتم تناقلها عن طريقها[٤].

الثقافة العراقية وتحديات ثورة الاتصال.

لا تخلو أية ثقافة من الثقافات من وجود نسق للقيم خاص بها يعطيها تماسكها واستقرارها واستمرارها، وهو الذي يسوغ سلوك الأفراد وأفكارهم وخصوصياتهم التي تميزهم عن غيرهم ، وهذا النسق الذي يسمى أحيانا" النمط الثقافي أو الذاتية الثقافية يتكون بمرور الوقت لدى مجتمع ليشكل علامة فارقة له تميزه عن غيره ، ومجتمعنا العراقي لا يشذ عن هذا الأمر ، فنجد له ذاتية ثقافية تكونت عبر تاريخ طويل من الوجود والأخذ والعطاء لأشكال السلوك وأنماط الحياة وأساليب الفكر ومجموعة القيم المنقولة منه واليه وتوثقت عبر مسيرة طويلة جسدت ما تعارف عليه المجتمع العراقي ، فصارلثقافتنا العراقية أنماط وقواعد تنتظم في نسق قيمي أعطاها قوة إلى قوتها واستمرارا تاريخيا جعلها تصمد بوجه القادم اليها من الثقافات الأخرى وأخذت ما هو ايجابي منها [٥].

واليوم صرنا نحن العراقيين نواجه تحديات ثقافية تنتقل عن طريق وسائل الاتصال التي أزالت الحواجز أمام انسياب الثقافات بعد أن امتزجت التجارة بالثقافة فصارت الثقافة لأول مرة سلعة أي شيئا" يمكن تبادله، فهي تنقل بالصورة والصوت إلى أماكن لم تكن تستطيع الوصول إليها سابقا" وغدت وسيلة متقدمة في تكوين

ذهنية الفرد وتحديد سلوك الناس وحياتهم اليومية [٦] ومعلوم إن المجتمعات التي تستمر بالأخذ من الثقافات الوافدة لها لا تستطيع المحافظة على خصوصيتها الثقافية وهذا هو ما يحصل فعلا معنا في المجتمعات العربية بعامة، والعراق بخاصة، إذ أن شعوبنا تأخذ أكثر مما تعطي من المكونات الثقافية وإذا استمرت على هذا النحو فإنها ستصير الأضعف على صعيد المدرسة والأسرة.... الخ.

ان الصناعة الثقافية في التلفزيون فرضت قوانينها في المجال الإعلامي كما في مجالات السياسة والاقتصاد، فصارت تتدفق من المراكز الأقوى إلى الأطراف والهوامش الأضعف التي نحن نقع ضمن دائرتها وباتت تقدم البرامج التلفازية التي تحمل في مضمونها وإشكالها ثقافات متعددة ومتنوعة تتصف بصفات الذين يملكون مفاتيح السيطرة على السوق التلفازية إن استطعنا أن نسميها كذلك، والتي تسعى إلى نشر أيدلوجيتها خدمة لمصالحها ، فهي كما ترفع شعار التجارة الحرة في مجال الاقتصاد كذلك ترفع شعار التدفق الحر للمعلومات في المجال الإعلامي. وحقيقة الأمر فهو يتدفق باتجاه واحد وهذا ما يثبته الواقع، ونحن واقعون الآن تحت هذا الخطر. إذ أن الدراسات تشير إلى أثر التلفاز في عملية التنشئة الاجتماعية التي صارت قائمة على المثقفة، أي الاحتكاك بين ثقافتين غير متعاونتين في الإمكانات غالبا، مما يحدث أزمات هوية ثقافية وحضارية متعددة تؤثر في إرادة الإنسان واتخاذه لقراراته مما يجعله فريسة سهلة لمركبات نفسية صعبة قد تدفعه في اتجاهات سلبية وغير سوية، وهذا ما صرنا نعاينه اليوم بشكل واضح وجلي لا يمكن انكاره [٧] .

ايجابيات التلفزيون الثقافية

ذكرنا ان للتلفاز أهمية كبيرة في المجتمعات بما يؤديه من وظائف اجتماعية وثقافية وسياسية وتربوية وترفيهية ، وهنا يكفي الإشارة إلى ما قاله الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديغول:(أعطني هذه الشاشة الصغيرة وأنا أغير الشعب الفرنسي)[٨] هذا ما يؤكد دوره في بناء المجتمعات وتأثيره في الاتجاهات، إذ أن علماء النفس والاجتماع دائما" يشيرون إلى إمكانية تغيير مواقف الناس أو سلوكهم بوساطته إذا ما حمل لهم معلومات ضرورية من اجل الوصول إلى أهدافهم .

ونحن في عالم اليوم يواجهنا منذ الصغر كم كبير وهائل من المعلومات عن طريق هذه الوسيلة بخاصة بعد تطوره صناعة وأداء ووصول بثه عبر الفضاء إلى مختلف أرجاء الأرض ونحن العراقيين لا نختلف عن ذلك خاصة بعد عام ٢٠٠٣ حين تمكننا من التقاط هذا البث وصار في متناول أيدينا وصرنا نلتقط المئات من القنوات الفضائية بسهولة ويسر وبتكاليف قليلة جدا" ، فلا يكاد يوجد في العراق اليوم منزل لا يدخل إليه البث الوافد من القنوات الفضائية العربية والعالمية ، وعليه فإننا شئنا أم أبينا نتأثر اليوم بهذا القادم ايجابا" أم سلبا".ومع هذا فإننا لا نقر بسلبية هذا الوافد حسب، بل إن له من الايجابيات التي تخص موضوع الثقافة ما لا يمكن انكاره ونذكر منها:

١- نقل الثقافة: فقد اسهم البث الفضائي في التلفاز الوافد لنا في نقل مكونات الثقافة من المجتمعات الأخرى إلى مجتمعنا العراقي وجعلها في متناول أيدينا دون أن نبذل جهودا ونفقات كبيرة.

٢- ترويج الثقافة: لم يعد المتلقي العراقي أسير قناة أو قناتين تلفازيتين بل كما قلنا بمقدوره أن يرى العشرات منها، وأساسا كل واحدة منها تعمل على تقديم ماده أو مواد ثقافية تمثل ما يريد أصحابها ففي نهاية الأمر تكون قد وصلت إلينا من أنواع المواد الثقافية الشيء الكثير الذي قد لا نستطيع متابعته بأجمعه، ونتيجة ذلك وبشكل عملي فقد تم تقديم ثقافات متعددة ومتشعبة المصادر وممثلة لغالبية شعوب الأرض .

٣- تنويع المادة الثقافية: ونتيجة لما قلنا سلفا فقد قدمت لنا مواد ثقافية غنية وغزيرة ومتنوعة ومن مشارب مختلفة بل للمستويات الجماهيرية كافة. فلم تعد تعرض مواد ثقافية تخص شريحة واحدة من الجماهير وإنما نجد أن هناك قنوات أو برامج تقدم ثقافة تخص الأطفال او الشباب او شريحة النساء اللاتي بدأن الآن يتابعن العديد من البرامج التي تثير شغفهن ومتابعتهن ، كما أن هناك مادة ثقافية اقتصادية أو اجتماعية أو رياضية .... الخ ولم تعد السياسة وحدها تشغل الوقت بالبث التلفازي .

٤- إعطاء طابع ديمقراطي للثقافة : فقد عمل هذا البث الفضائي بتعدد قنواته على جعل الثقافة ملكا" للجماهير ولم تعد محصورة في موضوعات محددة وموجهة مسبقا" من قبل سلطة البث المحلي سابقا" ، بل صار بإمكاننا اكتساب أية ثقافة متوافرة ، فلا يقف هناك أي حاجز يمنع استقبال بث أية قناة فضائية ترغب فيها، وأنت حر في اختيار ذلك وحر في تثقيف نفسك بأي اتجاه، فكما أن هناك قنوات تقدم الترفيه بشكل لا يجرح الذوق العام فان هناك قنوات تقدم لنا ترفيها هزيلا" وهابطا" بل ويقدم لنا مادة ترفيهية تتعارض مع مكونات ثقافتنا العراقية الأصيلة ، لكن ليس بمقدور أحد حجب أي توجه إعلامي عن المتلقين.

سلبيات البث التلفازي الوافد

إن القنوات الفضائية دخلت العراق بشكل سريع ومفاجئ بعد عام ٢٠٠٣ ، وبدأت ترد إلينا العديد من البرامج التلفازية بزخم هائل مقدمة لنا سيلا كبيرا من المعلومات بخاصة بعد تكاثر الفضائيات من خاصية العدة والعدد، وهذا تزامن مع سيطرة الشركات الكبرى وأصحاب رؤوس الأموال على هذه الفضائيات إذ لم تعد حكرا" على الدولة ومؤسساتها .

فبدأ صانعو القرار والقائمون عليها ممن يمتلكون قوة مالية وسلطة معنوية محاولاتهم لتحقيق أهداف تمتاز بالشمولية والتعدد عن طريق تقديم خدمات الأخبار والترفيه والدعاية والتنشئة، بصناعة إعلامية ذات مقومات تقنية عالية ، فصارت الفضائيات تمتلك وجها ايجابيا وآخر سلبيا بالغ الخطورة بما فيه من عناصر تمس الفرد أو العائلة والمجتمع والدولة في مجالات العقيدة قبل كل شيء والتوجيه السياسي والأداء التعليمي ... الخ [٩]. فثقافة الصورة القادمة لنا عبر الفضائيات تحمل لنا ظواهر متعددة مثل الاغتراب والقلق وإثارة الغريزة الفردية والعدوانية والانحراف وسلطة المال والجنس وحب الاستهلاك والأنانية وعدم الاكتراث والتمرد ، وهي في حقيقة الأمر بعيدة كل البعد عن ثقافتنا العراقية لكنها صارت اليوم من مفردات الحياة العامة ، وبدأ إنساننا العراقي يمارسها عن طريق المحاكاة والتقليد ، وبذلك خلق لنا هذا البث الوافد مشكلات وتحديات ثقافية واضحة، ومما يؤسف له أن دور الأسرة والمدرسة في عملية التثقيف بدأ يتضاءل نتيجة لطغيان أثر

التلفاز عليه إذ صار قوة صارمة لا يمكن الوقوف بوجهها بخاصة بعد سنّ قوانين تكفل الحرية والديمقراطية، وامتلك الفرد حصانة تمكنه من ممارسة ما يريد دون تدخل العائلة أو المدرسة وما إلى ذلك من مرجعيات الضغط عليه . ويمكن إجمال الجانب السلبي للبث الفضائي الوافد والتحديات التي تواجهنا فيما يأتي: [١٠]

التحدي الفكري :

ليست المشكلة بما يقدم من أفكار تتسم بطابع التوافق مع أفكارنا ولكن المشكلة بظهور موجة فكرية لا تتجاذب مع أفكارنا بل غالبا ما تتنافر معها [١١] فما يقدم لنا على سبيل المثال من دراما تلفازية في هذه الفضائيات يشكل خطرا" حقيقيا" على الإنسان العراقي وصارت أفكارنا وقيمنا مهددة بالابتعاد عن خصيصتنا الثقافية وثقافة الأمة العربية فصرنا نخشى من طمس الهوية العراقية الأصيلة والتراث الفكري الذي تراكم على مر العصور فنجد ترويجا لأفكار تعمل على تعميق التشتت الإنساني في مجتمعنا .

وما نتابعه من هذه المسلسلات والأفلام التي تقدم ما يتعارض مع ديننا الإسلامي مثل إظهار الصداقات المحرمة في شرعنا الإسلامي على إنها تطور يجب أن نقبل به وهذا بمرور الوقت وبكثرة العرض والتكرار قد يصير مستساغا وطبيعيا فقلما يظهر لنا التلفاز مثال الطلبة في الجامعات وما يريدونه من ملابس بخاصة الطالبات اللاتي لا حشمة في ملابسهن بل تظهر مفاتنهن أمام طلاب الجامعة الآخرين، كذلك تقبيل الرجال للنساء المحرمات عليهم وهم يتخذونهن صديقات لهم يخرجون سوية وباختلاء تام وفي جانب آخر نلاحظ وبشكل واضح جدا" ومستمر أنها تقدم كل ما يظهر لنا بان المسلمين وعلى رأسهم العرب هم أناس همجيون لا يعرفون سوى القتل والتدمير وإثارة الفتن ، ولا يعرفون معنى الحرية والديمقراطية التي يعدونها من منجزاتهم هم فقط وان العربي لا يعرف معنى المدنية المعاصرة وهو متشبث بماضيه فقط وانه أناني لا يريد مصلحة الآخرين وهكذا. وفي السنوات الأخيرة وجدنا أفكارا تقوم على تأجيج روح الانقسام بين العراقيين فهي تركز على أنهم سنة وشيعة أو عرب وأكراد وتركمان .. الخ وهذه الأمور بدأ أثرها واضحا في التفريق بين أبناء الشعب العراقي وصرنا نرى صداها يتردد هنا وهناك.

١- إثارة الانبهار بالآخرين: إن الانبهار في حقيقته حالة نفسية واجتماعية تصيب الفرد وتؤثر فيه وتغير سلوكه أحيانا"، فهي تثير الدهشة مع الحيرة من الأمر، و الانبهار يتمثل في إعجابنا بآخرين مع الإحساس برغبتنا في تحقيق ما حققوه هم، وهذه الحالة صارت إحدى مهمات الإعلام الوافد من الغرب خاصة فهو يعمل عن طريق ما يقدمه في التلفاز من برامج (أفلام، ومسلسلات) وما يظهره فيها من حياة، وعرض ما توصلوا إليه من التقدم العلمي والرفاهية التي يبثونها بحيث تعمل دائما على تأكيد سلطة الآخرين ليس فقط اقتصاديا بل في المجالات الأخرى كافة. فيقوم التلفاز بنقل صورة جمالية جديدة لهم وبذلك فهي تعمل على إكسابنا شخصية معنوية جديدة تتصارع أحيانا" مع ذاتيتنا الثقافية وأحيانا"تحل محلها بعد أن تعاملت مع مقاييس الرخاء المستورد عن طريق هذه البرامج إلى حد التماس مع الغرب في شكل من أشكال الامتصاص اللاواعي للآخر فهذا التأثير السلبي للأفراد والمجتمع جاء ليجعلنا أسيري المجتمع المتقدم المعروض لنا

على الشاشة الصغيرة [١٢]. فكثيرا ما نرى في الدراما (أفلام، مسلسلات)حياة العائلات التي تسكن في القصور الفخمة (فيلا) ولديهم أناس يخدمونهم في المنازل ويديرون أعمالهم، كذلك شركاتهم التي تدر عليهم الأرباح، وهم لا يبالون بالفقراء والمحتاجين من عامة الناس، أضف الى ذلك تظهر سياراتهم الفارهة وحياة البذخ والترف والإسراف الظاهرة على الموائد التي تقدم للعائلة وما نشاهده من حفلات ومناسبات تقدم فيها الخمور والمشروبات وأنواع الأطعمة كافة. وهذا الأمر لا يقتصر على الأفلام المنتجة في الغرب بل كثير منه ينتج عربيا.

أما حياة الفقراء وهم غالبية مجتمعات اليوم فإنها غالبا" ما تظهر في هذه الدراما على أنها أسوأ حياة وإنهم لا يستحقون العيش أو يظهرون وهم يؤدون أردأ الإعمال وأكثرها اهانة لهم، وهم الخدم للأغنياء الذين يعاملوهم معاملة سيئة، فنادرا" ما يظهر الفقراء بمهن يحترمها الأغنياء الذين يمثلون الجانب الآخر من هذه الأفلام والمسلسلات. وحقيقة الأمر فإننا نعيش مرحلة استلاب يمارسها التلفاز الوافد ضدنا في كل شيء عن طريق تقديم صورة تلفازية تتمتع بالجمالية (جمالية الشكل والمضمون)تثير فينا ما هو كامن في داخلنا لتجعلنا نقدس كل ما هو أجنبي بل ونحتقر كل ما هو محلي ، وتعمل على صرفنا وإبعادنا عن واقعنا ولا نواجهه بل نطمع بالأكثر الذي في اغلب الأحيان لا يمكن أن ننال بطرق صحيحة وهذا ما يجعلنا في نهاية المطاف مرتبكين ومحتارين في كل سلوكنا وتصرفاتنا .

٢- إثارة التطلعات السلبية: يمتلك الإنسان نزعة استطلاع أي انه فضولي يرغب دائما" في التعرف على كل شيء ويحاول الحصول عليه أو أن يقلده. وقد استغلت هذه النزعة وسائل الاتصال، فتعهدت بتقديم كل ما يريده الإنسان على شكل صور تلفازية ليس لغرض تعريفه بها فقط بل لاستثارته وترغيبه بالوصول لها والحصول عليها، وهذه هي بداية الطريق لجعله يمتلك ما يقدم من برامج تغذي لديه الشعور بالنقص الكبير الذي ينعكس سلبا" على السلوك المعتاد ، مما يجعله يهرب من المحيط الاجتماعي للبحث عن الواقع البديل. وهنا تكمن خطورتها، فقد قامت الفضائيات الوافدة بعملية حساسة جدا" وهي تقديم الدراما التي تكون اقرب إلى الأساطير، أي تقديم مواد تلفازية تشد انتباه المتلقين وتحثهم للتفكير بخلق واقع مفترض يقدم له أساطير الرخاء والرفاهية وأنموذج الحياة المتطورة جدا" ، يترافق هذا الميل مع استغلال التأثيرات العاطفية وتجميد الحس العقلاني ورفع سقف التطلعات ، وترغيبنا بأكثر مما نستطيع الحصول عليه مما ينتج خيبة في الآمال والأحلام التي رغبنا فيها [١٣].

وهذا ما يجعل الشخص الذي لا يمكنه أن ينال ما يريد اللجوء إلى طرق وسبل غير مشروعة وغير قانونية لوصوله إليه ، فقد يتجه للقتل والاحتيال والسلب والنهب والسطو والسرقة من اجل امتلاك الأموال التي تعد الوسيلة المهمة للحصول على ما يرغب فيه من امتلاك سيارة فارهة وان يعيش حياة الترف التي عرضتها له شاشة التلفاز ويذهب إلى أماكن اللهو والعبث .. الخ مما يمكنه الحصول عليه بوجود المال. وهذا النمط من

الحياة قد لمسناه في العراق بشكل واضح في الفترة الأخيرة التي تزامن معها ضعف سلطة الدولة والقانون بعد عام ٢٠٠٣ وانتشار الفضائيات في بلدنا.

٣- تنمية الذوق الهابط: المفروض أن يقدم التلفاز المادة الثقافية التي ترتقي بالذوق العام من حيث كونها متنوعة وجادة ومنفتحة على الآخر ايجابيا". ولكن حصل العكس إذ أن المادة الثقافية صارت تجارية في غالبيتها العظمى، وقد اضطربت بهذه الثقافة، بحيث صار لدينا اليوم نمط هابط جدا" من حيث الذوق والأسلوب والمضمون.

فالبرامج وبخاصة الأغاني ذات المستوى الرديء منتشرة بشكل ظاهر وكثيف، وهذا ما تشير إليه الدراسات التي تظهر إن ما يصدر من ثقافات للأسواق الخارجية عبر الفضائيات يعد الأردأ من بين السلع الثقافية. وذلك في جانب كبير منه يعود إلى هيمنة وكالات الإعلان وأباطرة الإنتاج التلفازي والسينمائي الذين يفضلون ترويج المواد الثقافية ذات الطابع الشعبي التجاري لضمان الأرباح ، فباتت الثقافة الرفيعة نادرة ولا تلقى ذلك الرواج ، وفي جانب آخر بسبب طبيعة المتلقي العاطفية وتأقلمه مع هذه البرامج فهو يرغب في مشاهدتها وسماعها . وهي تقدم له بشكل مستمر ومتكرر وقد تكون مفروضة عليه فأينما يتنقل هذا المشاهد بين القنوات الفضائية يجد نفس النمط من المواد البرامجية إلى أن صارت مقبولة ومستساغة من قبله ، وهذا الأمر في نهاية المطاف سيصل به إلى مرحلة من التجهيل والتخدير بل والتضليل أحيانا والأغرب من ذلك نجد إن القنوات الفضائية تتنافس لتقديم هذه المواد الهابطة بدعوى أنها ترضي أذواق الجمهور[١٤]. فالأغاني القديمة ذات النكهة الخاصة من ناحية الكلمات والألحان باتت نادرا ما تقدم على شاشات الفضائيات وان قدمت لا مشاهد يتابعها إلا القليل ممن يقيمونها ويتذوقون معانيها وألحانها ، ويشاركها في هذا الأمر الأغاني التي تخص الأطفال التي ينبغي ان تقدم لهم ثقافة تحمل في طياتها الترفيه مع الكلمات التي تدعو إلى أفعال الخير والدعوة إلى التمسك بالفضائل والأخلاق الحسنة ، كل ذلك قد قل وجوده على الشاشة الفضائية سوى ما تقدمه بعض القنوات التي ظهرت مؤخرا" (طيور الجنة مثلا") التي تفتقر حاليا" إلى الكثير منها. فلذلك صار الملاحظ اليوم إن شبابنا وخاصة يؤدون أغاني ذات كلمات هابطة في معناها لا ترقى إلى مستوى تفعيل الفكر وترسيخ الصفات الايجابية عن طريق هذه الأغاني التي تقدمها له الفضائيات الغنائية وما أكثرها وهي متزايدة في العدد دائما ، فنراه أحيانا" يدندن بكلمات قد تكون مبتذلة وألفاظ سوقية بمجرد انه قد أعجب بالموسيقى المرافقة لها وهي تداعب عاطفته ومخيلته، وهي في غالبيتها تأخذ طابع الإيقاع السريع وتطغى على كلماتها الموسيقى، ولا تنسى ما يرافقها من لقطات سريعة(كليبات) تتضمن مشاهد فاضحة بما فيها من الإباحية وحركات النساء وتموجات الشعر التي هي أساس إغراء الشباب وهي الجاذب المهم بالنسبة لهم. وبذلك تحول التسلية والترفيه من كونه احد الوظائف الأساسية المهمة لوسائل الإعلام التي يؤديها التلفاز إلى تقديم كل ما هو مبتذل وسلبي يستخف بالمشاهد ويبعده عن الذوق السليم .

٤- إثارة النزعة الاستهلاكية: بعد أن اطلع على العالم الخارجي عن طريق الفضائيات صار الإنسان العراقي يرغب بشكل كبير في تقليد ومحاكاة ما تظهر هذه الفضائيات ويرغب كذلك في اقتناء ذلك، وهذه حالة نفسية غريزية كمثيلاتها تم استغلالها من قبل منتجي الأفلام والمسلسلات والبرامج بشكل عام والإعلانات بشكل خاص وتقوم في محاولة مدروسة لتسويق السلع عبرها مستخدمة أساليب نفسية يفهمها صانعو البرامج والقائمون على هذه الفضائيات لمخاطبة عواطف الفرد وغرائزه لتقود إلى شراء أو استخدام السلعة أو الخدمة . فهذا الشخص المتلقي عند استخدامه السلعة أو الخدمة يشعر بأنه قد أرضى غريزته وأشبعها أو أن ذلك الفعل قد جعله في دائرة نجمه المفضل الذي يظهر في الإعلان، وبذلك فهو يشعر بشخصية معنوية عند فعل هذا الأمر. فلا يخفى علينا ما تقوم به دول المركز المتقدم من ترويج لمنتجاتها وبيعها عبر التلفاز وهي تنجح في ذلك ، فهي تستحدث منتجات صناعية جديدة وتصدرها لنا مع أنها أحيانا" لا تدخل في إطار كونها حاجات أساسية أو تدخل في عملية تنمية وتطوير مثل الترويج لمستحضرات التجميل واستهلاك الكحول وتدخين منتجات التبغ والاستهلاك الموسع للمشروبات الغازية ... الخ كذلك تصدر لنا منتجات خدمية غير ملموسة خاصة في مجال الفنون والرقص وتصفيف الشعر وتكون على شكل موضات وصرعات تنتشر بسرعة فائقة بفضل وسائل الإعلام[١٥]، فدور هذه الوسائل هو نقل وتشجيع الاستهلاك لمواد متعددة وعادات متنوعة قد لا تنسجم مع واقعنا ، فلو نظرنا إلى ما تقوم به الإعلانات خاصة ، نجد أنها غالبا ما تخاطب النساء لتقدم لهن مستحضرات التجميل والغسيل والتنظيف والملابس ... الخ والمرأة بطبيعتها أكثر استعدادا" من الرجل في التأثر بذلك الإعلان من وكلاء البيع من مختلف المدن والمناطق ورافقها كذلك عبارات من قبيل (محدودية الكمية)و(محدودية الوقت) للحصول عليها. مع التركيز هنا على موضوع مهم يخص جانب وقت عرض هذه الإعلانات الذي يترافق مع عرض مسلسلات وأفلام لها متابعة واسعة من الجمهور مثلا" مسلسل (نور) على قناة (MBC) ومسلسل (سنوات الضياع) على قناة (MBC) وهما مسلسلان تركيان ودبلجة سورية قد استلطفهما الجمهور العراقي والعربي وتابعهما بشغف .كذلك للأطفال نصيب في الإعلان عن منتجات تخصهم ، ولا يخفى علينا ما يطلبه الطفل ويصر على اقتنائه لحد إجبارنا على ذلك أحيانا" . ومما يجدر ذكره انه هناك قنوات فضائية متخصصة بالإعلان عن منتجات متعددة ومتنوعة لها الأثر في عملية جذب المشاهد لمتابعتها والعمل على اقتناء ما تعرضه باستمرار.

٦- انتشار ثقافة العنف: قدم لنا التلفاز ثقافة العنف بشكل ظاهر، على المستويات كافة من الصغار إلى الكبار، فنجد أفلام الأطفال تحتوي على مشاهد للعنف بكل صوره كذلك الأفلام التي تعد للكبار فيها هذا الأمر. فالشخص الذي يرى هذه المشاهد باستمرار بصورة (القتل والتدمير والسلب والسطو ومشاهد المعارك والدماء ... الخ) قد يصير لديه حالة من محاولة تقليد هذا الأمر واستخدام أساليب يقدمها التلفاز، وبذلك ازدادت فرص الجريمة والقتل والسلب التي تحدثنا عنها سابقا" وبشكل قياسي لا يمكن أن نتجاهله [١٦]، فقد انتشر لدى الشباب تقليد حركات القتال العنيف عند حصول المشاكل ومحاولة حلها بطرق القوة واقتناء أو

استخدام أنواع السلاح الذي يظهر في الأفلام الأجنبية المعروض ، كما إن موضوع السرعة في قيادة السيارات في الشوارع قد اخذ من التقليد وأصبح جزءا" من ثقافة الناس العامة . كذلك فان الأطفال غالبا ما يؤدون حركات يقلدون فيها ما يرونه في التلفاز.

٧. التسطيح الفكري وتحريف الواقع :فلا عجب إذا ما قلنا إن التلفاز يساعد على الجهل في بعض الأحيان ، مع إن هذا الكلام فيه شيء من الغرابة ولكنه صحيح نسبيا" ، فعلى الرغم من الدور الذي يلعبه في عملية التثقيف الايجابي فانه قد يأخذ اتجاها معاكسا تماما" .فالمواد الإعلامية التي تبث للجمهور تمتاز بكونها مختزلة ومحكومة بعامل الوقت الذي لا يسمح بالإطالة في العرض والتناول ،فلذلك يركن الجمهور للكسل والاكتفاء بجرعات المعرفة المقننة والسطحية التي تقدم له بلا مجهود ولا تفكير[١٧] وهذا ما يشير إليه علماء الاجتماع والذي أثبته الواقع الذي نعيشه اليوم

٨ . إضعاف العلاقات الاجتماعية :فإننا لا نكاد نرى العائلة الواحدة تجتمع في مكان واحد لمشاهدة التلفاز كما كان سابقا" حين كانت هناك قناة أو قناتان على أكثر تقدير تتابعها العائلة وتجتمع لرؤية برنامج أو مسلسل أو فلم مع وجود علاقات اجتماعية وترابط عائلي تتخللها مسامرات وتسلية عائلية في جو من المرح والود .إذ أننا حاليا قلما نجتمع معا كعائلة وتتطابق آراؤنا في متابعة برنامج بشكل جماعي نظرا لان كلا منا له رغبته في متابعة ما يريد من القنوات والبرامج التي يرغب فيها والتي صارت كثيرة جدا"، مما حدا بالكثير من أفراد العائلات لاقتناء أكثر من جهاز استقبال البث الفضائي (الستلايت) للحد من المشاكل التي قد تحدث بسبب ذلك ولإرضاء كل فرد من أفرادها .

نتائج واستنتاجات البحث

بقدر ما يوجد من ايجابيات للبث الفضائي التلفازي أوضحناها سابقا" يوجد سلبيات تواجه مجتمعنا العربي قادمة إلينا من الغرب وهي تحدي للثقافة والعادات والتقاليد التي ورثناها عبر عصورنا وحضارتنا القديمة نتيجة التطور الحاصل في كل المجالات وعلى مختلف الأصعدة ومنها الفضائيات التي قربت المسافات وجعلت العالم قرية صغيرة في متناول أيدينا حيث أخبار الشرق والغرب وكل ما يخطر في ذهن المتلقي يجده أمام عينيه في لحظة يسيرة٠ أما سلبيات البث التلفازي الوافد إلينا من الفضائيات فنوجزها فيما يأتي:

١- التحدي الفكري: إن الفضائيات الوافدة تحمل تحديا فكريا كبيرا للقيم والتقاليد والمعتقدات وكثير من وجهات النظر ومضامين المسلسلات التي تظهر على الشاشات لها تأثير مباشر في المجتمع الشرقي ومنها ما يتعارض مع ديننا الإسلامي مثل إظهار الصداقات والسكن المشترك ٠٠ الخ ٠

٢- إثارة الانبهار بالآخرين: إن الانبهار في حقيقته حال' نفسية واجتماعية تصيب الفرد وتؤثر فيه وتغير سلوكه أحيانا، وكثيرا ما صار حديث المشاهد العراقي يتمحور في رغبته بالحصول علي ما يراه في

الفضائيات أو تقليده أو انبهاره في (القصور) (والسيارات الحديثة) حياة الأغنياء أصحاب شركات ولديهم الخدم، يعكس الفقراء التي يظهرون الفئة التي لا تستحق العيش أو الاحترام وسيطرة الأغنياء عليهم ٠

٣- إثارة النزعة الاستهلاكية: صار الإنسان العراقي والعربي بصورة عامة يرغب في اقتناء كل ما يرد في الإعلانات بين المسلسلات والبرامج التي يعرضها نجوم التلفاز، وهي حالة غريزية لدى الفرد، إذ يشعر انه باقتناء ما يشاهده في الفضائيات يكون قد أرضى غريزيته وأشبعها وقد نجحت أكثر الفضائيات في هذا الأمر.

٤- إثارة ثقافة العنف: البرامج التلفازية الوافدة لنا تعرض الكثير من العنف وعلى المستويات كافة فمنها ما يستهوي الصغار ومنها ما يستهوي الكبار حيث القتل والسطو والعنف واستخدام القوه في حل المشاكل٠٠٠ الخ

٥- تعدد أجهزة البث: لقد اثبت الواقع الذي نعيشه اليوم وأشار إليه الباحثون في علم الاجتماع، أن كثرة الأقمار الفضائية تؤدي إلى عدم اجتماع العائلة في مكان واحد في داخل المنزل نفسه، حيث كانت في الماضي تجتمع في مكان واحد وتشاهد البرامج التي تتخللها أجواء الحديث المشترك والمرح والتسلية والود لقربهم. أما اليوم فإن أكثر العائلات تقتني أكثر من جهاز في المنزل (الستلايت) حيث كل فرد من العائلة له قناة يرغب في مشاهدتها أو فضائية أو قمر يختلف عن الآخر وهذا العدد الكبير من الأجهزة يؤدي إلى التشتت في العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة الواحدة.

٦- إثارة الشك السياسي: وصف التلفاز بأنه أداة من أدوات الشك السياسي على أساس انه كثير ما يبادر إلى إطلاق أحكام سياسية غير مرغوب فيها أو يقلل من شان بعض المعايير والعقائد السياسية أو يسفه العمل السياسي وهذا واضح في الإعلانات السياسية ضمن قنوات الدول المجاورة للعراق.

وهذا التحدي لا يخص العراق وحده بل نجد المجتمعات كافة تعاني منه بما فيها المجتمعات المتقدمة والتي أحست بخطر الاتصال المتطور على الشعوب، فمنذ عام ١٩٧٨ شكلت منظمة اليونسكو لجنة (شون ماكبرايد) (*)قامت بمهمة دراسة المشكلات التي حصلت بعد تطور الاتصال ووسائله وقدمت تقريرها المتشائم حول أحوال الثقافة الإعلامية الدولية الذي أشار إلى وجود وضع مأساوي قد يلحق أضرارا بالغة بالتفاهم الأممي والتعاون بين الشعوب وسيخلق مناخات غير مستقرة في ثقافات الدول ومشاريعها بالأخص دول العالم الثالث التي يعد العراق جزءا" منها٠

الهوامش والتعليقات

(١) د٠ صلاح الغوال : مناهج البحث في العلوم الاجتماعية ٠ القاهرة ٠ مكتبة غريب / ١٩٨٢ ص ٤٩

(٢) د٠ صلاح الغوال : المصدر السابق، ص ٤٩

(٣) ياسين خضير البياتي : الفضائيات الوافدة وسلطة الصورة ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢٦٧- بيروت،٢٠٠١،ص١١١.

(٤)د. أديب خضور : الدور الثقافي للتلفزيون (دراسات تلفزيونية) المكتبة الإعلامية – دمشق – ١٩٩٩ ص١٠ .

(٥) عبد الله بن مسعود الطويرقي : صحافة المجتمع الجماهيري ، ط١، مكتبة العبيكان ، الرياض ١٩٩٧ ص٢١٨ .

(٦) ماجي الحلواني : مدخل إلى الفن الإذاعي والتلفزيوني والفضائي ، عالم الكتب ، الشركة الدولية للطباعة ، القاهرة ٢٠٠٢ ص ١١

(٧) عبد الوهاب بو حديبة :تنشئة الطفل اجتماعيا" ، الدار العربية للكتاب القاهرة ١٩٨٤،ص١٢٥ .

(٨) أديب خضور – المصدر السابق ، ص١١-١٢

(٩) خير ميلاد أبو بكر : التدفق الإعلامي من جانب واحد ، مجلة البحوث الإعلامية ، مركز البحوث ، العدد ١٧ ليبيا ص٣٤ .

(١٠) هادي نعمان الهيتي: مدى تأثير القنوات الفضائية الوافدة على المجتمع العربي، مجلة الإذاعات العربية العدد٤،١٩٩٤،ص٣٦-٤٠.

(١١) زكي حنوش : أزمة الشباب العربي ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٨٠، ١٩٩٥ ص٤٦

(١٢) هادي نعمان الهيتي : المصدر السابق ص٣٧ .

(١٣) تيسير أبو عرجة : الإعلام العربي : تحديات الحاضر والمستقبل ط٢ ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان ، ٢٠٠٠ ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

(١٤)حميدة سميسم : بنية الصورة وسياسة الاتصال ، مجلة آفاق عربية العدد (١-٢)ك٢ شباط -١٩٩٨، ص٢٢

(١٥) ملفن دوفلير وساندرابول روكتيش : نظريات وسائل الإعلام ، ترجمة كمال عبد الرؤوف ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٩ ص٣٦٣ – ٣٦٥ .

(١٦) عبد الله بن مسعود الطويرقي : المصدر السابق ص٦٦.

* شون ماكبرايد هو وزير خارجية ايرلندا في تلك الفترة وهو رئيس اللجنة وسميت باسمه.

(١٧)حميدة سميسم : المصدر السابق ص٢٣.

المراجع

٠١ د.أديب خضور: الدور الثقافي للتلفزيون (دراسات تلفزيونية) المكتبة الإعلامية – دمشق – ١٩٩٩م.

٠٢ برهان غليون : اغتيال العقل (محنة الثقافة العربية)، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥م.

٠٣ تيسير أبو عرجة : الإعلام العربي،تحديات الحاضر والمستقبل ط٢، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٠م.

٤.جاب الله موسى حسن : دكتاتورية الصورة ، مجلة متابعات إعلامية ، العدد ٦٤ صنعاء ،١٩٩٩م.

٠٥ حميدة سميسم : بنية الصورة وسياسة الاتصال ، مجلة آفاق عربية العدد (١-٢)ك ٢ – شباط ١٩٩٨ م.

٠٦ خير ميلاد ابو بكر : التدفق الإعلامي من جانب واحد ، مجلة البحوث الإعلامية ، مركز البحوث ، ليبيا، العدد ١٧.

٠٧ زكي حنوش : أزمة الشباب العربي ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٨٠، ١٩٩٥م.

٨. صلاح الفوال : مناهج البحث في العلوم الاجتماعية ، القاهرة ،مكتبة غريب / ١٩٨٢م.

٠٨ عبد الله بن مسعود الطويرقي : صحافة المجتمع الجماهيري ، ط١، مكتبة العبيكان ، الرياض ١٩٩٧ م.

٠٩ علي مهيوب البريهي : اثر استقبال البث الفضائي في اليمن ،أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الإعلام ٢٠٠٣م .

٠١٠ ماجي الحلواني: مدخل الى الفن الإذاعي والتلفزيوني والفضائي، عالم الكتب، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة ٢٠٠٢ م.

٠١١ ملفن دوفلير وساندرابول روكتيش : نظريات وسائل الإعلام ، ترجمة كمال عبد الرؤوف ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٩ م.

١٢.هادي نعمان الهيتي: مدى تأثير القنوات الفضائية الوافدة على المجتمع العربي، مجلة الإذاعات العربية العدد ٤،١٩٩٤م.
٠١٣ ولبور شرام : أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية دمشق ، وزارة الثقافة والاعلام م.١٩٦٩م.
٠١٤ ياس خضير البياتي : الفضائيات الوافدة وسلطة الصورة،مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٦٧ بيروت ٢٠٠١ م.